دراسة بلاغية في رثاء الشيخ أبي بكر (أوماهيا) لشيخه عبد الله بدندي

عداد:

سليمان سلمان أبوبكر

مقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي المصطفى. كان عنوان هذه المقالة "**دراسة بلاغية في رثاء الشيخ أبي بكر (أوماهيا) لشيخه عبد الله بدندي**".

وأهم الدوافع لاختيار هذا الموضوع:

- قلّت العناية المدراسة البلاغية في المخطوطات العربية بإمارة إلورن.
- لإخراج التراث العربي الذي جادت به قرائح علمائنا وأجدادنا الأجلاء من طور الخفاء إلى عالم الوجود، لأن طالما يريد الباحث أن يكتب عن الشيخ أبي بكر (أوماهيا)، وأشكر الله على إتاحته لي هذه الفرصة السانحة.

ويهدف هذا البحث إليابراز مقدرة الشيخ اللغوية والأدبية من خلال مخطوطاته العربية ليتعرف القارئ على أن مدينة إلورن التي تمتاز منذ أمد للفنون البلاغية، ومدى مهارته في اللغة العربية والأدب. وسلك الباحث المنهج الوصفي والتطبيقي لأنه مناسب لمعالجة القصيدة.

وأما البحث فيحتوي على أربعة مباحث بعد المقدمة، فالمبحث الأول تناول ترجمة الشيخ أبي بكر من نشأته وحركاته العلمية والأدبية. وماله من المخطوطات العربية. فيظل المبحث الثاني عرض القصيدة مناسبتها وأفكارها.

ويدرس المبحث الثالث دراسة تحليلية للملامح البلاغية في القصيدة من حيث الأسلوب والتشبيه والمجاز والمبالغة. أما المبحث الرابع والأخير فهو الخاتمة التي تشمل خلاصة البحث ونتائجه وإسهاماته في البلاغة العربي ثم الاقترحات والتوصيات. ولله قصد السبيل.

ترجمة الشيخ أبي بكر بن مصطفى (ابن هي)

المبحث الأول: حياته ونشأته وحركاته العلمية والأدبية

ولد الشيخ أبوبكر بمدينة إلورن عاصمة ولاية كوارا، في حارة "سورو" بمنطقة غمبري إلورن، وقد وصلتنا روايات مختلفة حول تاريخ ميلاده ولكن أرجحها سنة 1905م.

وأما أبوه فهو مُحَمَّد المصطفى بن أحمد، وأمه سيدة ميمونة بنت عبدالله بدندى بحارة أكلنب إلورن، وهذه الأم هي التي أنجبت له ابنين مباركين هنا الشيخ أبوبكر أوماهي والشيخ سليمان.[1]

وقد اتضح جليا أن الشيخ نشأ من أسرة علم ودين وشرف وذات تاريخ عريق ومجد أصيل لكن كلتي الجهتين أثرتا في نبوغ الشيخ ونضحه العقلى والثقافي.

وقد نشأ في حجر والديه وترعرع تحت كنفهما ورعايتهما في مدينة إلورن، وقد اعتني به والده عناية فآحصة وبوجهه إلى ما يجلب له الخير في المستقل كان يراقب خطواته، ويحبّذ بأحسنها ويرشده، وكان دائما مشتغلا بالقراءة والكتابة حتى استوت يداه وحرّر كثيرا من المخطوطات المتعلقة بالدين من ناحية والمتعلقة باللغة والأدب من ناحية أخر[2].

وفاته:

توفي الشيخ أبوبكر يوم الخميس صباحا من شهر ربيع الأول 1409هـ الموافق 1988/10/13م. وقد قضى جلّ حياته في خدمة العلم والدين، وكانت وفاته صدمة كبرى للإسلام والعلم[3].

حياته الثقافية:

عهد الأخذ: أخذ الشيخ أبوبكر تربيته الأولى من والده مُحَمَّد المصطفى الذي كان غالبا يصقل ذاكرته ويهذّب أخلاقه ويوجه ميوله وعاطفته وعلى الألواح يمرّن أصابعه على حسن الخط وروعته، وعلى هذا الأساس دوّن شتى الكتب العربي بخط يده الشريفة، ومن بينها القرآن الكريم وتفسيره كتاب الجلالين لمؤلفه الإمام عبد الرحمن السيوطي، هذه العادة المحمودة هي التي شاعت بين العلماء في عصره.

وقد قرأ على مربيه الأول الشيخ مُحَمَّد المصطفى مبادئ العلم وأشهرها القرآن الكريم، وكتاب الأخضري للفقه والدالية للغة والأدب وغير ذلك من الدروس الدينية.

ولم يلبث طويلا حتى التحق بدهليز والد أمه الشيح عبدالله بدندي المشهود له بالنجابة والفصاحة والبلاغة في بيته "أكلنب"، وأخذ عنده أكثر العلوم العربية والفنون الأدبية من نحو وصرف وبلاغة وعروض وأدب وتوحيد وفقه وأصوله وعلوم القرآن وحديث ومصطلحه. وأما أهم الكتب التي

وقف عليها كالمقرر: فهي كتاب الأجرومية وملحة الإعراب وقطر الندى وألفية بن مالك وكتاب القافية، ولامية الأفعال وكتاب الحصن الرصين ومقامات الحريري ونيل الأماني ومختار الشعر الجاهلي[4].

ويبدو أنه تضلع على يد هذا الشيخ عبدالله بدندي ولكنه لم يكتف بذلك بل التقى ببعض علماء عصره ونال منه فوائد كثيرة تعلّم عند الشيخ عبد الرحمن بن إبراهيم "قبر العلوم" كما تثقف عند الشيخ العلامة مُحَمَّد الوزير "بدّا".

تلك هي أشهر المواد العربية التي اطلع عليها شيخنا وكونته محمودا وصنعته صنعا مباركا حتى أصبح عالما كبيرا وماهرا في الخطابة والشهر واللغة العربية وكتابة الرسائل.

عهد الأداء: أسسنّ أوماهي في بيته دهليزا كبيرا بأوي إليه عشاق اللغة العربية، وكان يدرّس الطلاب ليل نهار بطل جدية وأمانة، لا تمنعه حاجة عن التدريس إلا الصلاة وبعض الحوائج.

وقد نبغ على يديه عدد كثير من العلماء الذين ظلوا فيما بعد دعاة الناس إلى الإسلام ومدرسين أكفاء، وقضاة متضلعين، وأئمه المساجد وخطباء مفوهين وشعراء مفلقين، هؤلاء صراحة لاينساهم التاريخ في قائمة الأجلاء من العلماء، نذكر منهم ما يأتي بالاختصار دون الحصر:

- الشيخ غالي ألايا
- الشيخ أبوبكر ثكاما
- الشيخ عمر بين
- الشيخ مرتضى والد الشيخ يحي مرتضى أغودي
- الشيخ أديلودن
- الشيخ سليمان يدندي
- الشيخ عبدالله أوكيتا
- الشيخ سلمان أكلنب
- الشيخ موسى كنيكي
- الشيخ سحبان
- الشيخ "غافتا"
- الشيخ سليمان أوحوموا
- الشيخ عبد الغني "أبابيعكي"

وهؤلاء تلاميذ الشيخ أبي بكر أوماهيا قرأوا عليه العلوم العربي والإسلامية بجميع أنواعها وكانوا فيها متضلعين ونبغاء ماهرين في الفقه واللغة[5].

حياته الاجتماعية:

تزوّج الشيخ بثلاث زوجات واختارهن من أطهر أسرة إخلاصا وخلقا وعلما ودينا مؤمنا بأن الأصل يؤثر في الفرع تأثيرا إما أن يكون إيجابيا أو سلبيا؛ ومعتمدا على قوله تعالى في القرآن الكريم: "والبلد الطيب يخرج نباته بإذن الله والذي خبث لايخرج إلا نكدا..." سورة الأعراف، آيه 58.

وكان أوماهي يحسن معاملته معهن ويؤدي حقوقه لهن على قدر الاستطاعة، وظلت هذه العلاقة الاجتماعية وطيدة وأنبتت نباتا حسنا وأثرا خالدا؛ لأنه ينفق عليهن إذا ابيضت الحال ويصبر إذا استودت كان يراقب الله تعالى في كلتي الحالتين يشكر على النعم ويصبر على البلاء.

قد رزقه الله العظيم أولادا مباركين من الذكور والإناث، وقد يبلغ عددهم أربعة عشر ولدا إذ أنجبت له الأولى السيدة فاطمة واليت انتسبت إلى بيت أولورو أوجابورو (Ife Oloro Ojagboro) خمسة أولاد وهم: السيدة راضية والشيخ مأمون والسيدة خديجة والإمام الجامع في مسجد(Owonwami) والسيد عمر الفاروق والسيدة سعادة.

وأما زوجته الثانية فهي السيدة عائشة التي كان أصلها "إتا أجبيئ" (Ita Ajia) فقد أنجبت لشيخنا أربعة أولاد وهم: السيدة حنة والواعظ الكبير المقدم الأكبر لمدينة إلورن وما جاورها، الشيخ سليمان "طن برنو" والأستاذ شئت، والسيدة عليه.

وأما زوجته الثالثة والأخيرة، وهي من أسرة أوبومالو (Opomalu) إلورن، وقد رزقها اله أربعة أولاد وهم: الأستاذ سعيد، والسيدة زهرة، والأستاذ إبراهيم خليل الله، والأستاذ مُحَمَّد المختار[6].

وقد أعطى الله كلهم هبة مباركة لأنهم جهابذة في العلم والأدب، وتعلموا من أبيهم الأخلاق الطيبة والشمائل المحمودة.

آثاره ومخطاطات:

وقد انتسخ الشيخ أبوبكر بخط يده المباركة مخطوطات كثيرة وأهمها: القرآن الكريم وتفسير الجلالين، وكان الناس يحبون أن ينستخوا لهم كلام الله لجمال خطه وروعة فنه وأسلوب كتابته، وكتب مؤلفات عربية كثيرة كالحصن الرصين وقطر الندى والعشماوية ةلألفية بن مالك، ودلائل الخيرات ونيل الأمان ومقصةرى بت دريد.

وهذه الكتب المنتسخة المذكورة ليست من إبداعاته وإنما هي إبداع آخرين من العلماء. أما تأليفاته التي أنتجتها بنت فكرته فهي كثيرة نذكر منها:

- إعراب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
- تخميس بانت سعاد
- تربيع إذا ما شئت لمدح رسول الله ﷺ

تقوى الإله قد طبقت قلبه متنورا متوارع مترعد
أنت الذي وافقت لما اخطبو حتى توكل عادة للواحد
سبقت لقنرك في زماك كليهم ونفذت كسهم صيادة راشد
ولك معان والبديع ومنطق بل أنت أفقههم بعلم موطد
وإذا ابتد بقراءة لك ظنه ونحو وتصريف والمتوحد
وإذا سمعت صوته وكأنه لقمان حكمة فاصح متفرد
22- وإذا اعتبرت بصوته وكأنما صوت النبي الهاشمي مُحَمَّد
وإذا الوصول مال أذنيه له صوت ابن داؤد النبي مُحَمَّد
وإذا رأيت وجه وكأنه بل نازل لصوت صح مفرد
من جاه يشكو إليه بابها ظنته يوسف حاسن متوحد
هذا إمام الأرض بل هو فوقهم ولسوف يطمه طعام وتعبد
أخلاقه محبوبة محسونة أغذا واعذب من قرات مووود
من ذا بعد خصاله للعالم متفرع وخصاله وتعبه
وذوا البصائر في الحياة وإن مضو والقمر معدوم وإن لم يفقد
ذكر له لنبينا زين الورا في كل وقت وشوقه المتابد
31- عالم عبد الله المتبصر الفارد في الدهر المتمجد
طعم له شرب له لجماعة لله ثم لهاشمي مُحَمَّد
فاق الخلائق كلهم بتحسن بصبر وتقوا وجود وسودد
منفنن في علمه متبخر كفصاحة جبريل عند مُحَمَّد
وله البلاغة والفصاحة أجمعا وله بشائة كنبي مُحَمَّد
حد لسان له كعضب نافيذ بقراءة وتصبر وتعبد
يا قوامنا من ذا ينوب منابه متعنن متعجز وتعبد
متعصم متلطف في صنعه طهر له في قلبه متوحد
صب لنا في جوده مع علمه هيب له وتأمل وتمجد
شيخ بدندي عالم أستاذنا من عون رب العالمين فارد
فالفعل منه موافق لصوابه بلسانه الخالص الزهد
وإذا حياك تزول عنك نائلا القاهر الخالق الفارد
عز له خوفا له للخالق لله ثم ذلك متوحد
عز له للناس كلهم معا ويح لنا للفقد هذا سيد

خزن لنا عم لنا أبدية متفنن متبخر متفرد
بل كل فن عنده متساويا لبلاغة وتفكر وتفرد
لم يبق فينا غير باك بعينه لوع لنا في صدرنا متسرمد
48- هذا البلية لا بلية فوقها موت الفقيه عالم متفرد
وخصاله فأنت بذاك تنصف قد زانه صبر وجود وزهد
كل اليتامى والمساكين معا أولوده أصحابه للفارد
جبريل وجرحيس أهل سعادة ليثان فائق كل عالم عسلد
أصحابه الحاج المصطفى لنا عند رب ليث فارد متمجد
كوكيهو كوبيو في تلاميذ درسه بل هكذا لرحمن قاضيا عابد
يحي وإدريس سراج غلامه موسى أبو الصديق المتسعد
وأبوبكر نجل شيخ المصطفى متصنف هذا كتاب زبرجد
ذاك الذي قبيته مع صومه في خمس عشرة يوم ذاك فقد
في شهر رمضان ليوم جمعة ودخلته في مضجع متفرد
58- خير له فعل له محبوبة أستاذ عالم فائق متفرد
وأتيت بابك يا إلهي أهدنى يا خالقي يا رازقي يا سيد
وبعون رب العالمين ختمتها وجلت سطرتها ستين سرد[8]

الأفكار الواردة في القصيدة، وقد تجمت في القصيدة أفكار مختلفة لخصناها في أربع أفكار:

الفكرة الأولى: الثناء على الله

افتتح قصيدته بالثناء على الله تعالى معترفا بوحدنيته وألوهيته وربوبيته. ويرجو من القارئين أن يصلّوا على هير الأنام وآله وصحبه ومن انتهج منهجهم.

الفكرة الثانية: أظهر مرارة حزنه بفراق شيخه الدنيا، وذكر الأسباب التي دعت إلى البكاء والندب.

الفكرة الثالثة: بيّن مدى تمكنه في علم الدين واللغة والأدب تناولت هذه الأبيات العلوم العربية التي تمكن فيها الشيخ بدندي، وأثبت أنه ماهر في علم المعاني والبديع والبيان، والمنطق والنحو والصرف والفصاحة، وقد تضمنت هذه الأبيات بعضه هباته الفذة كالصوت والجمال والورع والفكر الإمامة.

الفكرة الرابعة: تتمثل في هذه الفكرة صفاته الخلقية، وقد أشار الشاعر إلى بعضها من صبر وورع وزهد، وكان يأوي إليه المساكين واليتامى، وذكر من خلالها بعض تلاميذ الشيخ بدندي أمثال كوكيهو كوبيري وعبد الرحمن. ويحي وإدريس وموسى.

الفكرة الأخير: تنصّ على تضرع الشاعر إلى الله الخالق والرازق يبتغي منه الهداية وأن القصيدة اختتمت برحمة الله وبعونه.

مناسبة الشعر:

قال الشيخ أبوبكر (أوماهي) هذه القصيدة لمدح شيخه الشيخ عبد الله بَدَنْدَيْ والثناء عليه لما اشتهر به من الأخلاق المحمودة والعلوم اللغوية والشرعية. وأنه أعجب بمهارته في البلاغو والأدب والفصاحة والفقه والمنطق، وبحسن جماله ورنانة صوته وأنه نادر من بين علماء عصره حيث جمع بين العلم والدين والخلق والجمال. وهذه الخصيات هي التي أدت بالشاعر إلى قول الشعر.

الجو الإسلامي في القصيدة:

وقد غلبت في القصيدة النزعة الدينية الإسلامية، وإنه لا تخلو فكرة من أفكارها إلا وتمتاز بما ثبت في المصادر الإسلامية كالعلم والصبر والورع والزهد وما إلى ذلك من الأخلاق التي حبّذها الإسلام، وذلك يدل على أن الشاعر متحمس بالدين الإسلامي. فمطلع القصيدة طابع دبني حافل بحمد الله والثناء عليه، كما كان مقطعها مختوم بالدعاء والاعتراف بربوبية المولى العظيم.

المبحث الثالث: دراسة تحليلية للملامح البلاغية في القصيدة

هناك ظواهر بلاغية كثيرة في هذه القصيدة إلا أننا نركّز على أربع فقط، ونقوم بدراستها القلاغية بقدر الاستطاعة، وعلى هذا الأساس يتحدث الباحث عن الأسلوب والتشبيه والمجاز والمبالغة في القصيدة.

الأسلوب:

أما الأسلوب فهو الطريقة التي سار عليها الباحث لسرد المعاني الكامنة في صدره، وقد عرف أحمد حسن الزيات بأنه: "طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها في الصورة اللفظية المناسبة"[9]. وعرفه أحمد الشائب الأسلوب "بأنه نواة أساسية في تقييم الأعمال الأدبية من حيث الألفاظ والمعاني والعاطفة، لأنه يعبّر عن مدى دخيرة الأديب اللغوية ومؤثراته الاجتماعية، فنتعرف في إطار أسلوب نص الكاتب على شخصية العلم لأن الأسلوب هو الإنسان نفسه"[10].

وبالتأمل إلى هذين التعريفين يبدو أن الأسلوب هو طريقة الكاتب أو الشاعر الخاصة في اختيار الألفاظ، وتأليف الكلام، وأنه يجمع بين اللفظ والمعني لا يمكن تجزء أحدهما من الآخر.

وأما الشاعر في هذه القصيدة فقد اجتمع بين الأسلوب الخبري والإنشائي. وأما الأسلوب الخبري عند البلاغيين فهو "ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه، وهو إفادة المخاطب دائم..."[11]. فالأسلوب الخبري هو الغالب فيها، وقد وفق الشاعر إلى حد كبير في اختياره لهذا الأسلوب، لأنه هو المناسب لغرض المدح الذي هو في صدده حيث كان يخبرنا عن الأوصاف والأخلاق النبيلة والأعمال الجليلة التي حواها شيخه عبد الله بدندي: فإذا نظرنا مثلا في قصيدته من رقم 5 – 9:

فحل الأنام سابق متقادم متسابق لهم إلى متورد
شخي بدندكشنوي عالم قد زاح عنا كل حدب جدجد
موت الفريد فائق ألف الورى لمكارم أخلاق المتمجد
حتى تظهر مثل شمس ساطع في علمه متفني متفرد
شيخ شيوخ جاءنا في دجدج فإزاح شبهة كله وتبعد

فإن الشاعر يحزن عن موت الفقيد ومدى خزن الناس تجاهه. وقد تنوع الشاعر في أسلوبه يستخدم حينا الأفعال الماضية التي تفيد الثبات واليقين حيث يقول مثلا:

ودعى إلى الدين النبي مرتضى لا دين هاديا ونصرى مفسد
وتبثتت وتزهرت في علمه متاخرا من علم ماضيا شارد
سبقت لقنرك في زمانك كليهم ونفذت كسهم صيادة راشد
فاق الخلائق كلهم بتحسن بصبر وتقوا وجود وسودد

وأما الأسلوب الإنشائي فهو إرادة المعني الذي لم يكن موجودا قبل اللفظ إنما يوجد عند المتكلم به أي ما يحصل بعد الكلام[12]. وحينا يستعمل الأسلوب الإنشائي في الأمر والنداء والدعاء يقول في الأمر:

صلّوا على خير الأنام متنقا الهاشمي الكريم الممجد

استعمل صيغة الأمر الذي يفيد الإرشاد والترغيب حيث وجه كلامه إلى عدد كبير من جماعة القارئين وأمرهم بالصلاة على خير البرية. ويقول في الدعاء:

صب لنا في جوده مع علمه هيب له وتسأمل وتهجد

تفيد صيغة الأمر هنا الدعاء لأنه خرج من الأسفل وهو الشاعر إلى الأعلى الذي هو الله تعالى يطلب منه الأديب نزول الخير بوسيلة جود الممدوح وعلمه وتهجده.

وفي النداء يقول:

يا قومنا من ذا ينوب منابه متفنن متعجز متعبد

وقد نادى قومه بالنداء البعيد كأنهم أبعد منه، ذلك أن الشاعر رأى الممدوح أقرب منه مودة وأن السامعين كانوا بعيدين عنه مودة وإن كانوا أقرب إليه حسيا.

وأتيت باب يا إلهي أهدني يا خالقي يا رازقي يا سيد

وبهذا كله يتميز أسلوبه بالحيوية والرواج والإقبال

ومن الأسلوب السائد في قصيدته أنه كان يستهلها بسم الله ثم يحمد الله تعالى ويثني عليه ثم يصلي على النبي الكريم، كان يتطلق من هذه الخطوة قبل خوضه في صميم الموضوع لذلك كانت أشعاره تحتفل بالنزعة الدينية والسمة الصوفية. وهذه ظاهرة من بيت 1 – 4:

أنشأت مدحي الإله الواحد الماجد القاهر المتفرد

وحمدت رب العالمين فريدة نفي شريك لملكه متوحد
صلوا على خير الأنام متنقا الهاشمي الكريم الممجد
والآل والأصحاب قطب معا بشرا لهم صلوتنا متأبدا

وكان له طول النفس سفي مدح شيخه بحيث يذكر جل أوصافه الحسية والمعنوية من علم وجود وفضل وصت وتواضع، وبشاشة الوجه، وهو أيضا ينهي قصيدته عادة بالأسلوب الذي بدأ به فهوو أنه يحمد الله ويصلي على النبي العظيم. والأسلوب الذي توخاه شيخنا قادر على أن يوضح المعاني أو الأفكار أرادها، وعلى أن يعبّر عن جميع خلجاته وضمائره، لأنه أسلوب رصين بالسلس والجزلة يجذب عقول السامعين حتى يشعروا كما يشعر الأديب ويحسّون كما يحسّ ذلك أنه استطاع أن ينقل بهم بعاطفته الجياشة من عالم جامد جاف إلى عالم عاطفي خيالي وذلك من مميزات الأسلوب الواضح البعيد عن الغموص والخلل.

ومهما يكن من أمر فإن قصيدته تحلت بالوحدة الموضوعية، والوحدة العضوية حيث لا يكون مستطردا من موضوع إلى آخر بل إنه يعالج قضيته وموضوعه بفكرة منطقية متسلسلة بحيث لا يوجد التفكك والاختلاف بينه وبين الأفكار الأساسية والفرعية ويتسم أسلوبه بما وصفه النقاد بنسج الوحدة "وتعزيزا لهذا الموقف نلقى مجمل الآراء يدور في جملة من القيم الفنية التي نتركز في بيان كلامهم عند تقويم وجوه الإلئام والتي في المغفي إلى الوحدة العضوية بين أجزاء الكلام[13]".

وقد اختار الشاعر ألفاظا مناسبة لكل موقف من مواقف مدحه لشيخه الشيخ عبد الله بدندي، وأنه لم يتكلف في تركيبيه اللغوية بل إنه يوجز كلماته بالفصاحة الخالية من الغرابة والتعقيد والركاكة إلى الجانب ما استعمله من الكلمات الإسلامية كلفظة الإله، والشيخ، ومُحَمَّد، ودين النبي وسبحان الله، وتقوى الله وشهر رمضان، وجبريل ورب العالمين، وكلمة رازق وخالق، وما إلى ذلك. هذه الكلمات كلها واردة في المعجم الإسلامي مؤمنا بألوهية الله تعالى وربوبيته يقول مثلا:

وأتيت بابك رب أهدني ويا خالقي يا رازقي يا سيدي

ظاهرة التشبيه:

فقد استعان الشاعر في تقوية معنيه بالتشبيهات فشبه الأشياء بالظواهر التي أحاطت ببيئته من بحر وقمر ورمل وشمس وبدر وما إلى ذلك، فالتشبيه كما عرفه أحد البلاغيين بأنه: "إلحاق أمر بأمر في معني مشترك بأداة الكاف وكأنّ وما في في معناهما[14]". فالتشبيه إذن، هو عبارة عن المشبه والمشبه به، ووجه الشبه وأداة التشبيه.

وقد وردت أمثلة كثيرة في أشعار العصور العربية القديمة، ومن أروع ما يقال في التشبيه قول أمر القيس:

أيقتلني والمشرفي مضاجعي ومسنونة رزق كأنياب أغوال[15]

وقد شبه امرئ القيس هنا السيف والسهاب بأنياب أغوال وجمع بينهما بأداة نفي الكاف.

وقد وسعت ذخيرة الشيخ البلاغية فشبه المسوسات بالمعنويات وبالعكس، وهذا لا يتأتى إلا من كان قويا في اللغة العربية. ونقدم إليك نماذج حيه من قصيدته لتتجلى الحقيقة التي أشرنا إليها:

وإذا سمعت صوته وكأنه صوت النبي الهاشمي مُحَمَّد
وإذا اعتبرت صوته وكأنما صوت ابن داود النبي مُحَمَّد
وإذا رأيت وجهه وكأنه ظننته يوسف محسن متوحد
حد لسان له كعضب نافد وله بشاشة كنبي مُحَمَّد
هو الشمس الباقي كواكب عزه أضاء الزمان والدهور بعلمه
له هخلق كالشهد في حال طعمه وإلى من الشهد لطيب منافه
واعلم بأن شيخنا ووزيرنا فإنه خضم جود البادي

وقد لمحنا فيما أوردناه تشبيهات رائعة حيث أن الشاعر شبه صوت الممدوح مرة من حلوه وفصاحة بصوت النبي ﷺ، ومرة أخرى بصوت ابن دواد المشهور بالمزمار في حين جماله وأراد الكل، وهذا جميع بدنه لكنه أطلق الجزء المهم وأراد الكل، وهذا يعني أن الشيخ بدندي رجل جميل المزهر، ولا حظنا أن الشاعر استعمل أداتين لجمع بين المشبه والمشبه به وهما "كأن" و"طن" وكلاهما أداة التشبيه يصح أن يقوم أحدهما مقام الأخر ولعل السبب في هذا التكرار يرجع إلى حسن إقامة الوزن الشعري أو لنفي الوهم بأن الشيخ بدندي ليس بنبي الله يوسف وإنما هو عالم لكنه شابهه في الجمال.

شبه لسانه في صراحة الحق وإصابة القول بالسيف الباتر فيقول:

حد لسان له كعضب باتر وله بشاشة كنبي مُحَمَّد

كما جعل شيخه فوق أقرانه في العلم وشبهه بالشمس والآخرين من العلماء بالكواكب التي تستمد قوتها ونورها من ضوء الشمس وشق شبه لسانه كم حدته وفصاحته بالسيف فحدّ اللسان مشبه وكاف أداة التشبيه بحضب باتر مشبه به وكما شبه بشاشته وطلق وجهه بالنبي مُحَمَّد، والبشاشة مشبه وكاف أداة التشبيه والنبي مشبه به.

ظاهرة المجاز:

فالمجاز هو الكلمة التي استعملت في غير ما وضعت له لعلاقة جامعة بين المعني الأول والثاني مع قرينة مانعة من إرادة المعني الأصلي[16].

ومن المجاز العقلي الذي استخدمه شيخنا هو متمثل في قوله:

أخلاقه محبوبة محسونة أغذى وأعذب من فرات مورد

غير أن الكاتب لاحظ في القصيدة المجاز العقلي أو الحكمي فقط الذي هو إسناد الفعل أو ما يقوم مقامه إلى غير فاعله. وأروع مثال للمجاز العقلي ما قاله أبو تمام الطائي في مدح الخليفة المعتصم:

السيف أصدق أبناء من الكتب في حدة الحدّ بين الجدّ واللعب[17]

وقد أسند الشاعر الفعل إلى غير فاعله حين أسند الصدق بصيغة اسم التفضيل إلى السيف، فإنه ليس بإنسان الذي قد يصدق أو يكذب ولكنه جعله كالإنسان.

وقد أسند العذب إلى الأخلاق وهي لا تكون أعذب وأنها ليست توصف بالعذوبة إلا إذا جاءت على وجه التشخيص كما شخصها الشاعر هنا.

ظاهرة الكناية:

فالكناية كما عرفها البلاغيون هي "لقظ أريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعني الأصلي لعدم وجود القرينة غير مانعة من إرادته"[18].

وتتمثل هذه الظاهرة في البيتين الآيتين:

ولك معان والبديع ومنطق ونحو وتصريف والمتوجد

كل اليتامى والمساكين معا أولاده أصحابه للفارد

وقد آمن الشاعر بأن الكناية أو التعريض أبلغ من التصريح، أما قوله المعاني والبديع فهي كناية عن علوم البلاغة ذلك أن الشيخ عبدالله متضلع في هذا الفن بالإضافة إلى العلوم الأخرى التي ذكرها الشاعر وهي علم المنطق والنحو والصرف ولكن لتمكّن الشيخ في علوم البلاغة العربية قدمها على الجميع ثم كتابها المعاني والبديع.

وأراد بذكر اليتامى المساكين كناية عن جوده وكرمه وعطفه وأنه يعطي الفقراء والمساكين، لذلك كان الناس بيطوفون حوله في ككل وقت ومكان.

ومن أمثلة ذلك في أشعار القدامى ما قاله الخنساء:

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرماد إذا ما شتا[19]

كنى عن طول القامة والشجاعة وكثير القرى والكرم

ظاهرة المبالغة:

والمبالغة: هي أن المتكلم لوصف، بلوغه في الشدة أو الضعف حدًّا مستبعدًا، أو مستحيلا[20].

وقد أطلق الشيخ بعض الصفات على ممدوحه وبالغ فيها إلى حد يؤدي بالقارئ إلى أن يشك ويتردد في صحة تلك الصفات يقول مثلا:

سودان أهل الأرض كلهم زعموا لنجيب شيخ في شريعة أحد

هذا إمام الأرض بل هو فوقهم في علمه وخصاله وتعبد

فإنه في البيت الأول بالغ في فكرته التي تقول بأن أهل الأرض دون الاستثناء وأكد أهل الأرض بالكل أنهم زعموا أن الشيخ هو الوحيد في علم الشريعة، وكان مستحيلا أن يزعم أهل الأرض كلهم لأن الممدوح لم يكن في الأرض كلها بل هو يقوم في بقعة معينة من بقاع الأرض ولكن الشاعر عبّر بذلك اولا بشدة حبّه لشيخه وثانيا لإقبال الناس الهائل إليه. وفي البيت الثاني مدح الأديب الشيخ بإمام الأرض بل هو فوقهم ولا يمكن عقلا أن يكون إماما لمن في الأرض جميعا ولكنه يصح أن يكون إماما كبيرا من بين أئمة مكانه.

ومن أمثلة ذلك عند الشعراء القدامى ما قاله الفرزدق في هجائه لبني كليب:

ولو ترمى بلوم بني كليب نجوم الليل ما وضحت لسار

وقد بالغ الشاعر في قوله أن ضوء الليل ليسده لوم بني كليب لكثرته.

تناول الباحث في هذا المبحث دراسة بلاغية للقصيدة وتحدث فيهما عن الأسلوب الخبري والإنشائي اللذين توخاهما الشاعر ثم التشبيه والمجاز العقلي والكناية والمبالغة، وأورد نماذج حية لتلك الظواهر البلاغية من أشعار القدامى في العصور الأدبية قبل إيرادها وتحليلها في شعر الشيخ أبي بكر (أوماهي).

المبحث الرابع: الخاتمة

قد ذكرت المقالة في المقدمة الأهداف التي دفعت الباحث إلى كتابة ها الموضوع، وحدود الحجم أو النطاق الذي يدور حوله البحث ثم بيّن المنهج الذي رآه مناسبا لمعالجة الموضوع.

تحدث هذا العمل عن ترجمة الشاعر وما يتعلق بها من نشأته وحياته الثقافية والاجتماعية، والدينية ومدى إسهاماته في التراث العربي، وأشار إلى بعض النوابغ من تلامذته.

ثم درس البحث ما فيها من الأسلوب الفني الذي يؤتي القصيدة رونقا وبهاء، كاختيار الألفاظ المناسبة للمواقف المختلفة، وتناول كذلك بعض الظواهر البلاغية م تشبيه ومجاز وكناية وما إلى ذلك.

تحتفل هذه المقالة بنتائج كثيرة نذكر منها ما يلي: أدرك الباحث أن الشيخ أبابكر أخذ علومه من عدد كبير من علماء عصره، وكان له طول باع في علم الدين واللغة والأدب والقافية والعروض، لذلك تميزت قصائده بجودة الأسلوب وروعة العبارة ووضوح الفكرة على حسب التطور الشعري في عصره.

كان يحب العلم وتحصيله منكبا على مطالعة الكتب العربية المختلفة، وأنه انتسخ جلّ مؤلفاته بخط يده الشريفة، وامتلأت مكتبته بالمخطوطات العربية من تفسير القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، وله قصائد أخرى في أغراض شتى، غير هذا الذي تناولناه بالدراسةن كالرثاء والتهنئة وتربيع مدح إذا ما شئتن وتخميس بانت سعاد، وإعراب بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، إن الشيخ أبابكر عالم ماهر من بين علماء عصره.

ظلت قصدته هذه، تتسم بأنماط بلاغية جميلة من مجاز وتشبيه وكناية، كان يختار من الكلمات أروعها، ومن العبارات أفصحها.

أسهم هذا البحث إسهاما مباركا في إثراء المكتبات العربية الانتاجات الأدبية التي جادت بها قريحة أحد علماء غرة القرن العشرين بإمارة إلورن الإسلامية، من التراث العربي القيّم.

ساعد فيتدوين غرض معين لأحد الشعراء العمالقة بإمارة إلورن، ليستعين به من أراد أن يوقم بدراسة الظواهر البلاغية. أبرز ترجمة الشاعر ومقدرته اللغوية ومهارته في البلاغة العربية والعروض والقافية، والمنهج الذي اتبعه في أخذ العلوم وأدائها.

يرجى من السادة الباحثين أن يهتموا يجمع مخطوطات علماء مجتمعهم قائمين بدراستها وتحليل شعرها ونثرها.

وأن يعرضوا تراث أجدادنا بإمارة إلورن في المجلات الأكاديمية على المستوى الدولي والمحلي.

وأن يهتموا اهتماما بالغا بدراسة مخطوطات علماء إلورن لأنها كنوز تميزت بأجود العلوم العربية والإسلامية. وأن يستفيد منها الآخرون وليتعرف على جهود السابقين في العلوم العربية.

وأن تهتم وزارة التعليم والرنية بإدارج مخطوطات العلماء في المواد التي تدرس في المدارس العربية، وخاصة ما يتعلق بالجوانب البلاغية.

الهوامش والمراجع

1- مقابلة شفوية مع الخليقة سليمان يوم الأحد، 2017/6/20م.

2- مقابلة شفوية مع الخليقة سليمان أبي بكر مساء الأحد 2017/6/20م

3- المرجع نفسه، فضيلة الشيخ سليمان.

4- مقابلة شفوية مع الدكتور خليل الله عثمان بودوفو مساء يوم السبت 2017/6/24م.

5- المرجع السابق، الشيخ سليمان.

6- المرجع السابق

7- المرجع السابق، الدكتور خليل الله.

8- المرجع السابق، فضيلة الشيخ سليمان أبوبكر.

9- أحمد حسن الزيات، **دفاع عن البلاغة**، مطبعة الرسالة بالقاهرة 1945م.

10- أحمد الشائب، **الأسلوب**، بيروت لبنان، غير مؤرخ، 65.

11- د. مُحَمَّد كريم الكوّاز، **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم**، ط 1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، دار الكتب الوطنية بنغازي، دت، ص 76-77.

12- د. مُحَمَّد كريم الكوّاز، المرجع نفسه، ص 83.

13- أ. د. عبد الباقي شعيب أغاكا، **أساليب بلاغية في ديوان الأستاذ عبدالله بن فودي**، ط 2، 2003/12/7م، ص 329.

14- أحمد مصطفى المراغي، **علوم البلاغة**، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان 2008م، ص 179.

15- امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس**، دار الفكر، بيروت – لبنان، 1992م، ص 102.

16- أ. د. فضل حسن عباس، دار النفائس، **البلاغة فنونها وأقنانها** ط 1، 2009م، ص 127.

17- أبو تمام الطائي، **ديوان أبي تمام**، تحقيق عبد السلام، المكتبة العصرية، بيورت – لبنان، ص 197.

18- المرجع السابق، أحمد مصطفى المراغي، ص 260.

19- الخنساء، **ديوان الخنساء**، دار الفكر، بيروت – لبنان 1991م، ص 121.

20- السيد أحمد الهاشمي، **جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع**، دار الفكر بيروت – لبنان 1998م، ص 327.

21- آدم عبد الله الإلوري، **لباب الأدب**، مطبعة الثقافة العربية مركز التعليم العربي الإسلامي، 1980م، ص 27.